

المصادر والمراجع

- 1- ابن الأثير - الكامل في التاريخ، ج 12 طبع دار صادر بيروت 1386هـ - 1966م.
- 2- د/جمال حمدان - العالم الإسلامي المعاصر - الناشر عالم الكتب 1410هـ - 1990م القاهرة.
- 3- د/جمال عبد الهادي - الأستاذ علي لبن - المجتمع الإسلامي المعاصر بأفريقيا - دار الوفاء للطباعة - المنصورة - مصر 1415هـ - 1995م.
- 4- ريتشارد نيكسون - انتهزوا الفرصة - ترجمة حاتم غانم - نشر شركة قايتباي للطباعة والنشر والتوزيع - الاسكندرية 1992م.
- 5- رجب البنا - الإسلام والغرب - طبع دار المعارف - مصر 1997.
- 6- عباس محمود العقاد - لا شيوعية ولا استعمار - دار الكتاب العربية - بيروت - الطبعة الثانية 1971.
- 7- محمد حسنين هيكل - الانفجار سنة 1967، مركز الأهرام للترجمة والنشر 1411هـ - 1991م.
- 8- الشيخ الامام محمد الغزالي - نظرة على واقعنا الإسلامي المعاصر - نشر دار ثابت، القاهرة - الطبعة الثانية 1404هـ - 1983م.
- 9- محمد قطب - واقعنا المعاصر - مكتبة رحاب - الجزائر 1989م.
- 10- د/مصطفى محمد رمضان - بحث بعنوان "جرائم العنف والتطرف التي تعاني منها المجتمعات الإسلامية المعاصرة، رؤية تاريخية - ضمن أعمال المؤتمر الدولي الذي عقد في القاهرة من 4-6 ربيع الأول - 1419هـ - 28 - 30 يونيو 1998م بعنوان "العلوم الاجتماعية ودورها في مكافحة جرائم العنف والتطرف في المجتمعات الإسلامية، والبحث من ص 73 إلى ص 93 من القسم الثاني المجلد الأول.
- 11- مجلة أكتوبر القاهرة.
- 12- صحيفة الأهرام.

الحوالة وانتعاش الخصوصية العربية الإسلامية

د/ منصور بن عبد الحق
معهد علم النفس وعلوم التربية
- جامعة وهران -

مقدمة:

ان إخضاع الشعوب سياسيا واقتصاديا يؤدي حتما إلى محاولة إخضاعها ثقافيا. فالقوي الغالب إذا تمكن من بسط نفوذه يرفض من الضعيف التابع أي شكل من أشكال المقاومة أو التمايز والاختلاف عنه، ولا يرضى منه سوى تقمص نمطه في العيش كتجسيد واقعي ميداني لهيبته واعتراف قسري بسلطانه وجبروته، وكدعامة لتكريس تبعيته الاستهلاكية. غير أننا لا نستطيع أن نتحدث عن مشروع ثقافي شامل إلا في ظل سيادة قطبية مطلقة، وهو أمر لم يتحقق بعد. فالصراع السياسي والعسكري والاقتصادي على أشده بين الأطراف التي تريد أن تهيمن على مصالح العالم لتسييره بطريقتها ومن خلال قناعاتها وفي الاتجاه الذي يخدم مصالحها. في ظل هذا الصراع تقوم الكيانات والدول والأمم خاصة الضعيفة منها بمراجعة تموقعاتها وإدخال إصلاحات على أنظمتها ضمانا للبقاء. وكلفت هذه المراجعات كثيرا من هذه الأنظمة والكيانات التخلي أحيانا عن مبادئ وقناعات ظلت تدافع عنها قرابة القرن، واضطرت إلى الدخول في تكتل مع أعدائها وخصومها التقليديين. ومهما اكتسبت من قوة نتيجة هذه الإصلاحات فالأمر لا يعدو أن يكون تصويبا لوضع أو تصحيحا لموقع.. أما الصراع الحقيقي فيتعدى مستوى الذات، إذ لم يعد يكفي أن تتمكن الدولة من الوقوف بإمكاناتها الذاتية، ولكن تحتاج كذلك إلى تسخير هذه الإمكانيات

الذاتية لتقف بها في وجه القوى المتنافسة التي تسعى لاستيعابها. وهذا يفرض عليها أن ترتقي إلى المستوى الذي يسمح لها الدخول في المنافسة الشاملة وأن تدخل معترك البقاء الاقتصادي والسياسي والعسكري والثقافي في قمته وأوجه، بحيث أنها حتى ولو عجزت عن بسط هيمنتها على غيرها فإنها تقف حجر عثرة في وجه محاولة هيمنة الآخرين عليها.

ومن بين بلدان العالم التي تسترعي بعض الاهتمام والتي توجه لها الأنظار من كل ناحية بلدان العالم العربي والإسلامي والتي تدخل في جملتها وبأولوية ضمن المناطق التي يطمح المشروع الغربي الهيمنة عليها والتحكم في مصالحها، نظرا لما تتوفر عليه من موارد وما تتمتع به من مواقع جغرافية استراتيجية وخاصة لكونها في أعماقها تحمل مشروع مجتمع فيه كل معاني التحدي... مشروع له من الخصائص والصفات ما يجعل من الصعب إخضاع هذه المناطق من العالم والتحكم في خيراتها. بل تظل هذه الأخيرة تهدد باقي مناطق العالم وتعرض البديل الفعلي لما هو موجود.

فماذا يكون مصير هذه المناطق من العالم فهل ستعمل على التمتع من جديد والاندماج في مشروع العولمة الزاحفة أم أنها ستختار التقوقع والانطواء على الذات حفاظا على كيانه الضعيف الذي لا يستطيع مقاومة التيار الجارف؟ وماهي الوسائل التي ستعتمدها والسياسات التي ستنتهجها إذا هي أرادت لنفسها أن تؤدي دورا رائدا في المجتمع البشري؟

في هذه المقالة نحاول أن نؤكد على حاجة الأمة العربية والإسلامية إلى تعزيز حضورها خارج حدود حضارتها ومعالمها الثقافية قصد تحقيق الاستفادة القصوى مما هو متوفر للمجتمعات الرائدة القوية من امكانيات ووسائل وخاصة في وقت لم تستكمل عملية العولمة تلونها الثقافي وقبل أن يتم لها الاستقرار في الاتجاه الذي يخدم مصالح الأقوياء.

1- حق اختيار المسير والازجاء غير مكفول:

ان المنطق السائد في واقع العلاقات الدولية لا يسمح بحق تقرير المصير وتحديد الاختيار بكل حرية إلا لمن يستطيع فرض وجهته ويملك الوسائل الرادعة التي تحفظ هيبة لاختياره. وعليه فإننا عندما نتناول العولمة بالنسبة للدول الضعيفة التي لا تمتلك الوسائل الرادعة، لا يمكن أن نتحدث عن وجود عملية اختيار تمارس من قبلها، فالعولمة واقع يريد أن يفرض نفسه على الجميع لأن وجوده اقترن بتحقيق مصالح الأقوياء والدول والشعوب التي لا تملك القدرة على تقرير مصيرها بيدها والتي تعيش تبعية لغيرها تعيش الأحداث وتتأثر بها ولا تصنعها، وكما أسلفنا فإن العولمة هو اختيار الأقوياء ليس بوسع الضعفاء مراجعته فضلا عن الوقوف في وجهه. وعموما فإن رغبة الضعيف لا يعبأ بها القوي كما أن إرادته لا تكون في مستوى تغيير أي شيء من الواقع في صالحه.

2- التقوقع والانطواء على الذات انتحار:

ان اعتماد التقوقع والانطواء على الذات كاستراتيجية لا يضمن الحفاظ على خصوصية المجتمع للاعتبارات التالية:

أ- ان هذا التقوقع، بالنسبة للبلدان المتخلفة، هو عبارة عن احتضان الضعف والعجز وهذا لا يضمن استمرارية المجتمع وبقائه.. انها بالعكس حماية للعناصر المساعدة على انهياره تماما كما يتم إمداد الميكروب أو تقوية الفيروس القاتل داخل الجسم.

ب - ان هذا الاختيار لا يساعد المجتمع على التحرر من قيود التبعية.. خاصة وأن تحقيق الاكتفاء الذاتي لا تسمح به الظروف الراهنة لهذه المجتمعات ويبقى على المدى القريب حلم بعيد المنال.

ج - من ناحية أخرى فإن التقوقع يمثل في أحسن الأحوال سياسة دفاعية. وإذا افترضنا أن هذه المجتمعات تملك وسائل الدفاع الناجعة في مختلف

جبهات الصراع والمواجهة (علمية، اقتصادية، عسكرية، وتربوية ثقافية...) فإن السياسة الدفاعية على المدى المتوسط ترتفع كلفتها نظراً لأن الصراع يدور على أراضيها... ومعروف أن أحسن طريقة للدفاع عن مصالح أي مجتمع هي اعتماد سياسة الهجوم في أرض الخصم المناوئ.

د - ان عملية الانغلاق إذا افترضنا أنها تسمح بالنمو فإن هذا الأخير لا يكون إلا بطيئاً وبوتيرة لا يمكن أن تواكب تطورات المرحلة المعاصرة ومتطلبات اللحاق بالركب.

هـ - ان المجتمع الذي اختار طريقة الانزواء يضطر إلى استهلاك سموم خصومه خاصة الاعلامية منها. فالحرب النفسية والثقافية تعتمد وسائل قوية وعنيفة. فبواسطة البرامج التي تنقلها الأقمار الصناعية عبر محطات البث العديدة التي تحيط بالعالم العربي والإسلامي من كل جهة استطاع الأقوياء أن يوجهوا الرأي العام داخل هذه البلدان نفسها وأن يمرروا كثيراً من أفكارهم وقناعاتهم. فما دام العالم العربي والإسلامي يوجد في وضعية لا تسمح له بصناعة الحدث وأن هذا الحدث يصنع له، فلا بد أن يستهلك منه القليل أو الكثير كما أن جهاز مناعته نتيجة الضغوط التي تمارس عليه باستمرار لا بد أن يخفق في صد هذه الهجومات.

ز - كذلك فإن نفوذ المجتمع المنطوي يتقلص مجاله مع الزمن. وهذا من شأنه أن يدفع بحالة الاستقرار الداخلي والتوازن الذاتي إلى التصدع. فالحرب النفسية الموجهة ضد العالم العربي والإسلامي، والمشاكل الكثيرة التي تتخبط فيها هذه الشعوب... إذا لم تصاحبها توسعة في الأفق فإن الانطلاقة الإيجابية الواعدة سوف تتأخر والصعوبات المكبلة للحركة سيزداد.

3 - الانتعاش الداخلي مرهون بقوة الحضور على المستوى الدولي:

فقد تختار الأمة الانطواء على ذاتها قصد إصلاح وضعها من الداخل ومراجعة خططها وجمع قواها للانطلاق من جديد. وهذا على مستوى واقع الأنظمة المتصارعة لا يمكن أن يتحقق بهذه البساطة. فعهد الجمود الذي عرفته

الشعوب قد ولى. ان المجتمعات في الماضي كانت وتيرة التطور بها بطيئة بحيث أن الانسان يغيب عنها نصف قرن من الزمن فإذا رجع يكاد لا يرى في حياة الأفراد والجماعات جديدا يذكر.

ان عملية التقويم لا بد للمجتمع العربي والاسلامي أن يجريها وبصفة دورية للوقوف على مواطن الضعف والتعرف على عناصر القوة. لكن، بحكم الوضع الذي توجد فيه وطبيعة الصراع القائم بين المجتمعات، فإن مثل هذه العمليات التقويمية الضرورية لا يمكن أن تؤدي إلا كما تؤدي جماعة المسلمين صلاتها أيام الحرب وأثناء مواجهة العدو. فبقدر ما يسعى الأفراد لتعزيز علاقتهم بربهم وألا يتخلفوا عن مواعد المناجات وأداء الشعائر التعبدية في أوقاتها المحددة لأنهم في حاجة إلى قوتهم الإيمانية الدافعة، فإنهم مضطرون، من ناحية أخرى إلى تنظيم حراسة دائمة لمتابعة نشاط العدو ومختلف تحركاته حتى لا يتمكن هذا الأخير من مباغتتهم في لحظات انشغالهم بأداء صلاتهم. ان المجتمع العربي والاسلامي ينبغي أن يكون قريبا من الأحداث ومما يجرى في المحيط البشري حتى لا تفاجئه مواقف الآخرين وتضطره إلى تسجيل ردود أفعال مجهولة العواقب.

والحقيقة تقال، ان انتعاش المجتمع داخليا يكون في الأصل ثمرة طبيعية لانتعاشه خارجيا. فالفرص المتاحة للفرد الأمريكي اليوم والامكانات التي توجد تحت تصرفه يحميها التواجد القوي للولايات المتحدة الأمريكية في المحيط العالمي. كما أن التدهور الذي يميز حياة الفرد في المجتمعات المتخلفة (منها بلدان العالم العربي والاسلامي) يصاحبه ضعف في حضور هذه المجتمعات على مستوى الصراع الدولي. ذلك أن بسط النفوذ وتعزيز هذا الحضور كثيرا ما يساهم في تغطية مظاهر عجز المجتمع داخليا. بالنسبة للمشروع التربوي والثقافي، إذا لم يكن صالحا ليسخر في تحسين وضع المجتمع، وهذا لا يتم إلا من خلال سياسة انفتاح ايجابية، فإنه يتحول بالضرورة إلى أداة تعمل في حلقة مفرغة لتكريس الواقع المر لتصبح العملية التربوية لاحقا عالة عليه. بعبارة

أخرى فإن المشروع الثقافي يتعزز بدوره وسط الصراع ومن خلال الاحتكاك ومواجهة التحديات. لذلك نقول اما أن تدخل الأمة العربية والإسلامية في الصراع التنافسي لتحافظ على تواجدتها القوي أو أنها تموت ثقافيا وحضاريا.

4- رسالة الأمة العربية والإسلامية:

ان زحف العولمة الاقتصادية والسياسية والثقافية سيأتي على كثير من الأنظمة والأمم حتى من بين تلك التي تملك في الظاهر قوة وتمارس بعض النفوذ فضلا عن الأمم الضعيفة والعاجزة. لأن البقاء الحضاري والثقافي يستدعي ثباتا في صراع دقيق بأهداف دقيقة ووسائل ذات خصائص ومواصفات متميزة. فلا يكفي امتلاك قوة عسكرية مثلا.. فالمشروع الثقافي الذي طالما دافع عنه الاتحاد السوفياتي البلد العملاق بات لا وجود له في الواقع. والحضارة الرومانية، في عهد "قسطنطين" لم تعفها هيمنتها العسكرية من اعتماد الديانة النصرانية كمصدر رئيسي في توجيه سلوك أفرادها رغم أن الكنيسة كانت في تلك الفترة من التاريخ تمثل الطرف المهزوم، هذا بدون إدخال الاعتبار الذي يرى أن اعتناق الرومان للنصرانية لا يعني أن الرومان تنصروا ولكن الكنيسة هي التي ترومنت. والتتار الذين هزموا المسلمين في بداية الأمر اضطروا فيما بعد إلى تبني مشروع المسلمين الثقافي في حياتهم. والانتشار الإسلامي في آسيا بواسطة التجار الذين حملوه كسلوك وكأخلاق وكمواقف كان له تأثير أكبر من الاسلام الذي انتقل إلى أوروبا بعد دخول جيوش المسلمين إلى هذه المناطق من العالم. ورغم دخول "نابليون" مصر منتصرا فإنه نقل شريعة المسلمين إلى أوروبا واعتبرها مصدره في صياغة ما عرف لاحقا بقانون "نابليون". بل الحاجة دفعت "سيلفستر الثاني Sylvester II" وهو على رأس الفاتكان في الفترة ما بين 999م و1003م إلى المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية وتنظيم حياة أفراد المجتمع على أساسها ليس كعقيدة وكدين وانما كقانون.

في ظل هذه الصراعات القائمة التي يسعى فيها الأقوياء إلى إخضاع

الضعفاء لنفوذهم، فإننا نرى أن الأمة العربية والإسلامية بخصائصها المتميزة تستطيع أن تقاوم تيار العولمة الجارف وتحوله في اتجاه تصبح من خلاله من أكبر المستفيدين، إذا عرفت بطبيعة الحال كيف تتموقع وكيف ترتب أولوياتها وتنظم حياة أفرادها داخل هذا النسيج المعاصر. ومن الخصائص التي نتصور أنها سوف تؤهل هذه الأمة للاستفادة من التطورات المذهلة ولتسخير العولمة لصالحها والانطلاق في تعزيز مشروعها ونشر قناعاتها:

1- الأمة العربية والإسلامية لها رسالة عالمية:

إن القاسم المشترك بين شعوب العالم العربي والإسلامي هو الدين الإسلامي الذي تدين به وتعتز بحمل رسالته والذي هو مصدر أساسي تستمد الأمة منه قوتها من حيث أنه:

أ- يدعو معتنقيه إلى محاصرة مظاهر العجز والضعف في كل ميادين حياتهم وإلى امتلاك القوة لردع خصومهم وتحقيق عزة أفرادهم وشعوبهم.

• ب - يعزز صلة متميزة بين الشعوب الإسلامية تفوق من حيث قوتها ومثانتها ما تمكنت البشرية من تحقيقه من تقارب بين بعض المجتمعات الغربية بواسطة دخولها في تحالفات سياسية أو اقتصادية أو عسكرية (1). هذه الأخيرة تكون في أحسن ظروفها وأحوالها ممثلة لأطر تلتقي فيها الأنظمة أو الهيئات أو الحكومات بعيدة عن واقع الأفراد وقناعاتهم. ففي نظري يعتبر تكتل الشعوب العربية والإسلامية أصدق تكتل لأنه يبنى على أساس الدين الإسلامي الذي يعتبر الأخوة الإيمانية أجل وأعظم من الأخوة في الدم. فمما لا شك فيه أن الشعوب الإسلامية جميعها تتألم من الوضع الذي يعيشه إخوانها في "فلسطين" في صراعهم مع اليهود.. ونفس الأحاسيس والمشاعر تسجلها بالنسبة لما يحدث لإخوانها في "بورما" وإخوانها في "كوسوفو" وإخوانها في "البوسنة" وإخوانها المضطهدين في "الصين" و"الهند" و"كاشمير"... وإذا توفرت الظروف الملائمة فإن هذه الأخوة وحدها تكون كفيلة برفع التحدي.

ج - يدعو إلى طهارة النفس واليدين والبيئة، ويوجه الاستثمار في الوقاية. ذلك أن كل ما من شأنه أن يضر الإنسان يحرم عليه تعاطيه.. زيادة على أن المحافظة على الصحة الفردية ليس أمراً اختيارياً. ولكنه واجب ديني تماماً كالمحافظة على المال.. فمثل ما يكون الفرد مستخلفاً في المال الذي هو مال الله فهو كذلك مستخلف في صحة العقل واليدين يحافظ عليها ويعمل على تسخيرها لخدمة نفسه وأمته.

د - يشجع على التعلم ويحتفظ للعلم بالمكانة المرموقة حتى يصبح الامام بكل العلوم الضرورية بالنسبة للمسلمين من الفروض الكفائية التي يأثم جميعهم إذا لم يتم استيعابها والتحكم فيها. كما يدعو بصراحة إلى تسخير نتائجه لتطوير واقع المجتمعات البشرية. وليس من قبيل الصدفة أن نجد مشيدي الحضارة المعاصرة قد استندوا على العلم كركيزة أساسية وسلك أسلاف الأمة الإسلامية بالأمس النهج نفسه (2).

هـ - يدافع عن حرية الاعتقاد ويدعو إلى التسامح والتعاون.. فزيادة على صلة الإيمان القوية التي تربط المسلمين فيما بينهم، فإن هناك علاقة متميزة تربط المسلمين بغيرهم من النصارى واليهود الذين يكفل لهم الدين الحنيف حقوق كاملة ويطالبهم بواجبات مما يضمن اندماجهم ومشاركتهم في حياة المجتمع. وهذه الأرضية لاشك أنها تساعد الأمة على التحرك وسط الناس من مختلف الشرائع والتوجهات والثقافات والاحتكاك بمختلف الشعوب والقبائل وتبني مع الجميع علاقة ايجابية تسمح خاصة لغير المسلمين أن يروا حقيقة الاسلام على أرض الواقع القريب والمباشر، فلا يجدون فيه ما يزعج ويقلق ولا يرون فيه ما يؤذي ويضر فيغيرون نظرتهم تجاهه وبعد أن تزول الشكوك ومظاهر الريب التي طالما عمل واقع الخصوم والأصدقاء على ترسيخها في أذهان الناس فتأتي المرحلة التي يقبل فيها هؤلاء على هذا الدين ليعتنقوه «وما ذلك على الله بعزيز» وهو ما حدث في التاريخ مرات ومرات (3) وما أكثر ما يعيد التاريخ نفسه خاصة إذا اجتمعت الأسباب وتهيئت الظروف وتوفر

المخاخ المساعد. في المقابل نرى أن المجتمعات الغربية وهي في أوج قوتها لم تتمكن من استيعاب باقي الثقافات وتدمجها في مجرى حياة شعوبها.. فنجد أنها تضيق صدرا برؤية ما يخالف ثقافتها في واقع الأفراد والجماعات وتسجل ردود أفعال عنيفة إزاءها. ففرنسا البلد النووي الذي مازال يعتبر من الأطراف القوية التي تشارك في تقرير مصير الشعوب في العالم والتي تصنع أحداث هذا العالم، تضطر بحكم قناعاتها وفلسفة حياتها إلى اعلان حرب سياسية وإعلامية على البنت الصغيرة التي تعودت وضع خمار على رأسها حين تتوجه إلى المدرسة إلى درجة أن أحد البرلمانين الرجال وضع على رأسه خمارا يستلقت به الأنظار. هذه البنت حاولت أن تمارس في البلد الديمقراطي الذي يرفع شعارات "الحرية، المساواة، الأخوة" Liberté, Egalité, Fraternité حقها في حرية الاعتقاد وتعيش منسجمة مع نفسها مطمئنة. إلا أنها وجدت الواقع الفرنسي الذي يتظاهر بأنه لا يرفض لها حق الاندماج، لكن الاندماج الذي يُطلب منها هو في الحقيقة انسلخ عن شخصيتها والذوبان في شخصية الآخر... وجدت الواقع يطاردها ويلفظها. هذه المنطلقات المعتمدة في المجتمعات الغربية تجعلها على استعداد دائم للدخول في صراع مع كل من يخالفها ولا ينسجم مع ثقافتها. وستظل لهذا السبب عاجزة عن بناء العلاقات الإيجابية مع باقي الثقافات ومد الجسور تجاهها قصد استيعابها. وهي بهذه الضربات توظف الآخر وتمده بالقوة المعنوية التي تبقى أساسية في عملية المقاومة الثقافية.

و- يغزى مكانة اللغة العربية. هذه الأخيرة نزل بها القرآن الكريم وهو الكتاب الذي تقدسه جميع الشعوب العربية والإسلامية وتعمل على نشر تعاليمه في أوساط أفرادها. فحتى مع بقاء اللغات الأخرى متداولة في الأمة العربية والإسلامية فإن الجميع يحترم لغة القرآن ويسعى جاهدا لتعلمها على الأقل بالحد الذي يسمح له أن يؤدي شعائره الدينية وكافة العبادات المطلوبة. من هنا يكون هذا العنصر مساهما بطريقة مباشرة في تقريب الشعوب العربية والإسلامية وتوثيق الصلة بينها.

ز - يخاطب البشرية قاطبة. فهذه الرسالة من أبرز خصائصها أنها رسالة الله إلى الإنسانية كافة (4). قال الله تعالى: **(قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا)** (5) وقال سبحانه مخاطبا نبيه: **(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)** (6) وقال جل شأنه **(تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا)** (7). وقال الرسول ﷺ «وكان كل نبيء يبعث إلى قومه خاصة وبعث إلى الناس كافة» (8).

ح - يمثل رسالة الله الخاتمة. قال الله تعالى: **(وما كان محمد أبأ أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيئين)** (9). فتصبح من مسؤولية هذه الأمة أن تنشر تعاليمها بين شعوب الأرض في كل مكان وتتعقب بها خطأ الإنسان أينما وجد، وتعتمد في ذلك الوسائل الصالحة التي تمكنها من أداء هذه المهمة، مع التذكير أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وفي تقديري، فإن الوسائل والإمكانات التي توفرها العولة تسمح لهذه الأمة أن تطوق بها أزماتها وتتجاوز بها حالة الضعف لتأخذ موقعها الطبيعي بين الأمم والذي يشخصه النص القرآني على هذا النحو **(وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا)** (10).

2. موقعها الجغرافي:

إن موقع الأمة العربية والإسلامية بين الشعوب والقارات يعطيها مرونة في الحركة (11). فهي قريبة من الجميع (خاصة من الجهات الفاعلة) ويتودد إليها الكل بسبب هذا الموقع. وإذا كانت معرضة أكثر من غيرها للتأثر بسياسات واقتصاديات وثقافات الآخرين، فإن موقعها الجغرافي يسمح لها بدورها أن تترك بصامتها من خلال احتكاكها الطبيعي والمباشر بالشعوب الأخرى والثقافات المحيطة بها. ولعل الخوف من امكانية تأثير العالم الإسلامي في غيره هو الذي دفع بالدول الأوروبية مثلا أن تعلن رفضها لانضمام تركيا البلد المسلم إلى السوق الأوروبية المشتركة. وظل هذا الرفض يتجدد لأزيد من عشرين سنة.. ولم تدمج تركيا في الحلف الأطلسي إلا بقصد محاصرة امكانياتها العسكرية وتطويقها وعدم السماح لها بتطويرها بالصورة التي تصبح طرفا

مهيدا وبعد أن اضطروها إلى عقد اتفاقيات تعاون عسكري مع إسرائيل. فالاستفادة من تجارب الآخرين لا تكلفها مثل ما تكلف شعوبا أخرى نظرا لأنها كثيرا ما تتحقق في سياق طبيعي للعلاقة القائمة تاريخيا مع الآخرين. كذلك فإن الطبيعة الجغرافية المتنوعة التي تتوفر عليها تسمح لها بتقديم الخطى وتأخيرها ومراجعة مواقفها بما يتماشى مع تحقيق مصالحها وتكون دائما أمامها بدائل عديدة تستطيع أن تختار منها ما يضمن فائدتها وبأقل التكاليف.

3 طاقاتها البشرية:

لا بد أن نذكر هنا أن فئة الشباب تمثل في بعض المجتمعات العربية والإسلامية أكثر من خمسين في المائة من العدد الإجمالي للسكان. ففي عام 1985م كان هناك 85 مليون طفلا عربيا تقل أعمارهم عن 14 سنة. كما أن عدد سكان العالم العربي وحده تعدى 200 مليون نسمة مع نهاية 1988 بنسبة 57٪ دون العشرين سنة (12).

هذه الامكانيات البشرية إذا وجدت المناخ المناسب واجتمعت لها الظروف الايجابية التي تساعد على تفجير الكامن من طاقاتها واستغلال قدراتها الهائلة فإنها تنبعث من جديد وتستطيع حينئذ أن تصنع الحياة من حولها. وبما أنها تنتسب إلى ثقافات عديدة وإلى بيئات متنوعة.. وأن العالم العربي والإسلامي ظل حقلًا لتجارب دول الاستعمار طيلة عقود من الزمن، بحيث أن كل الأنظمة الاقتصادية جربت بها وكل الأنظمة الاجتماعية والسياسية ظهرت بها وأبرز لغات العالم المتحضر تم الاحتكاك بها من انجليزية واسبانية وإيطالية وفرنسية.. كل هذا الرصيد الهام يصبح بمثابة المادة الأولية التي بإمكان المجتمعات العربية والإسلامية تسخيرها للدخول في التجربة الرائدة التي وإذا لم تؤدي، في البداية، إلى قلب الموازين وتغيير مجرى الأحداث في العالم، فإنها من غير شك ستسمح لهذه الأمة أن تسجل حضورها القوي بين

الشعوب والأمم وأن تشارك بطريقة مباشرة في صناعة الحدث وأن تفرض بعضاً من شروطها التي تتلاءم ولو جزئياً مع المشروع الإنساني الذي تصبوا إليه.

4 - ثرواتها الطبيعية:

ان العالم العربي والإسلامي يتربع على مساحات شاسعة يمكن استغلالها في تطوير مختلف المشاريع التي تمس كافة الميادين بدون استثناء. فهي تعرف بجبالها وسهولها وهضابها وصحرائها وبحارها وأوديتها وبمناخها المتنوع. ولديها من المساحات الصالحة للزراعة، دون الحديث عن الأراضي التي يمكن استصلاحها، زيادة على احتياطاتها المائية ما يسمح لها أن تحقق أمنها الغذائي وتقوم فيه الاكتفاء الذاتي لتدخل بمنتجاتها الزراعي وثروتها الحيوانية السوق العالمية كمنافس قوي يعرض الجودة ويوفر الكمية المطلوبة وبأقل ما يكلف غيره. أما ما هو موجود في باطن أرضها من بترول وغاز ومختلف المعادن التي هي أساس كل صناعة فهو احتياطي كبير بوسع الأمة زيادة على تطوير التجارة في نسبة منه بما يسمح لها بالحصول على الأموال الضرورية لتمويل مختلف مشاريعها، استغلال هذه المواد الخام في تطوير مختلف الصناعات وتسجيل حضورها القوي في السوق الدولية بمنتجاتها الصناعي. يجب أن نلاحظ أن بعض الدول العربية والإسلامية كانت بالأمس القريب تصدر المنتجات الزراعي من حبوب وبقول جافة وخضر وفواكه إلى دول أوروبية هي اليوم تستورد ما تستهلكه (من غذاء) بنسبة تفوق 90٪ لأنه بعد اكتشاف النفط في باطن أرضها استغنت عن خدمة الأرض ولم تعد تهتم بالزراعة كما كان الشأن في السابق.. وهي اليوم تباع النفط وبالأموال التي تحصل عليها تشتري غذاءها..

5 - رصيدها التاريخي:

ان تاريخ الأمة العربية والإسلامية تاريخ طويل وحافل بالأحداث في جميع ميادين وصور الحياة (13). إلا أن هذه الصفحات من التاريخ الممتد تظل

غير مستغلة من قبل الإنسان المعاصر. فهو بمثابة الأرشيف الذي تستطيع هذه الأمة معالجته للاستفادة منه: بل بالوقوف على مختلف تجارب الإنسان عبر هذا التاريخ الطويل يسهل عليها القيام بالدراسات الاستشرافية والتنبيؤ بما يمكن أن يجري على يد هذا الإنسان في مستقبل أيامه. وهي بذلك تسبق الأحداث وتتهيأ لها قبل وقوعها فتضمن استقرارها السياسي والاقتصادي مما يسمح لها أن تواصل مسيرتها وتؤثر في غيرها.

فإذا عرفت الأمة العربية والإسلامية كيف توظف هذه العناصر الخمسة التي سبق عرضها وكيف تستفيد منها فإنها تكون في وضعية تسمح لها باستيعاب العولمة وتسخيرها في الاتجاه الذي يحقق أهدافها. ومن الاحتياطات التي ينبغي أن تأخذها وهي تقوم بمحاولتها تلك:

1- عدم اعتماد سياسة الانتظار السلبي وتأخير عملية التحرك إلى الوقت الذي ترى نفسها قد أصبحت تمتلك وسائل القوة. فهي استيراثية غير صالحة ومآلها الفشل. فبإمكانها أن تحدد لنفسها جبهات تتحرك فيها من الآن (استيعاب العلوم، حسن نقل المفيد من تجارب الآخرين في جميع ميادين الحياة...).

2- عدم الدخول في مغامرات غير محسوبة العواقب كأن تدخل في مواجهات غير مفروضة عليها ولا تمتلك فيها وسائل كافية بضمان النتائج الإيجابية.

3- التقليل من عدد الخصوم ما أمكن ذلك والانفتاح على كل تجربة بغض النظر عن المجتمع الذي ظهرت فيه والملابسات السياسية التي صاحبت ظهورها.

4- الدخول في التحالفات والتكتلات من منطلق تحقيق المصلحة الذاتية ولا ينبغي أن يأخذ الشكل والصورة التي سادت أيام الحرب الباردة. فالدفاع عن المبدأ لابد أن تضمنه القدرة على البقاء والمقاومة والشعارات المرفوعة أحيانا لا تقدم ولا تؤخر وقد تحول دون تحقيق الأمة لمصلحة شعوبها أو جلب لها

المنافع الضرورية. فالتحالف هو بالدرجة الأولى مصلحي قد لا يخدم المبدأ في الظاهر.

5- اعتماد الواقعية في التعامل مع الآخرين وتكييف بصورة تلقائية هذا التعامل مع ما يطرأ من تغييرات في الأوضاع والسياسات لدى بلدان العالم مع تسجيل المواقف المرنة القابلة للمراجعة في كل وقت وفي كل حين إذا دعت الحاجة إلى ذلك، بعيداً عن كل تعصب وعناد.

6- عدم تأخير المبادرة عن وقتها لأن عجلة الحياة تدور بسرعة وتسجيل الموقف إذا جاء في وقته المناسب قد يعطي للأمة دفعا كبيرا. فمثل هذه الفرص لا بد أن تستغل على أكمل وجه لأنها لا تعود.

7- ضرورة التعرف على طبيعة الصراعات القائمة وطبيعة المصالح التي يسعى كل طرف لتحقيقها. مثل هذه الخبرة تسمح للأمة بفهم مواقف الآخرين واستغلال نقاط الضعف فيها لصالحها.

8- عدم تعزيز القوة الذاتية في الجانب العسكري وحده وضرورة تطويره في الاتجاه الذي يضمن الفاعلية ولا تتقل كاهل الأمة وتضطرها إلى توقيف مشاريعها التنموية في القطاعات الحيوية الأخرى.

9- بناء العنصر البشري الصالح. وبإيجاد هذا العنصر يضمن المجتمع العربي والإسلامي حضوره القوي بين المجتمعات كما حصل له في سالف عصوره المزدهرة والتي ما بدأت تعرف الضعف والعجز إلا حين ضعف الإنسان وانشغلت الأنظمة عن اعداده وتأهيله بل أهملته وأذلته وأهانته. مع تعزيز مكانة العلم والإيمان في حياة الفرد والجماعة.

الخانمة:

ان الأمة العربية والإسلامية لن تستطيع المحافظة على خصائصها ومميزاتها بالانطواء على ذاتها، بل لن يسمح لها أن تبقى بعيدة عن الأحداث، ولا تملك سوى اختياراً واحداً أن تدخل المعترك التنافسي مع أقوى العالم وتتصارع من أجل أن تبقى كحضارة وكثقافة بوسائل الأقوياء. ولن يكتب لها من جديد أن تؤدي دورها إلا في هذا المستوى. لأنه كما هو بادي في الأفق سوف لن يوجد مكان لثقافة الضعفاء وتقاليدهم الصغار. وإذا كانت الأمة اليوم في وضعية لا تحسد عليها.. إذ تعيش التفكك والانقسام وتتخبط في العجز والتبعية مما يبعث على القلق والخوف.. فإنها مع ذلك تحتفظ بعناصر كفيلة برفع التحدي وتحقيق "المعجزة" كثمرة للتخطيط الصحيح والعمل الدؤوب والتوكل على رب العزة «فإذا عزم فتوكل على الله» بدون انتظار حصول الانفراج بواسطة تعاطي أحلام اليقظة، فسنة الحياة ثابتة وغالبة «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم». «ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً».

الهوامش

- 1- مثل: السوق الأوروبية المشتركة، الحلف الأطلسي، دول عدم الانحياز، دول "الكومنولث"... إلخ.
- 2- Haïdar Bammate (1976) "Muslim Contribution to Civilization".
- 3- جوزيف رينو «الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا في القرون الثامن والتاسع والعاشر الميلادي».
- 4- محمد الغزالي «عالمية الرسالة بين النظرية والتطبيق».
- 5- سورة الأعراف - الآية: 158.
- 6- سورة الأنبياء - الآية: 106.
- 7- سورة الفرقان - الآية: 1.

- 8- حديث رواه الشيخان البخاري ومسلم.
- 9- سورة الأحزاب - الآية: 40.
- 10- سورة البقرة - الآية: 142.
- 11- تقع الأمة العربية الإسلامية على ساحل البحر الأبيض المتوسط المنطقة من العالم الأكثر نشاطا سياسيا وعسكريا واقتصاديا، كما أن شعوبها تنتشر عبر القارات وتطل على المحيط الهندي والمحيط الأطلنطي والمحيط الهادي وعلى بحر الفيليبين وبحر الصين.
- 12- احصائيات قدمت في المؤتمر الذي عقد خلال شهر مارس 1988 في القاهرة حول القوى البشرية في الوطن العربي، مجلة الدعوة - العدد 1136 أبريل 1988 - الرياض.
- 13- مصطفى السباعي "من روائع حضارتنا".

المصادر والمراجع

- 1- السباعي مصطفى "من روائع حضارتنا" - دار الصديقية للنشر 1400هـ، 1980م - الجزائر.
- 2- الغزالي محمد "عالمية الرسالة بين النظرية والتطبيق" - دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة - الجزائر 1985م.
- 3- رينو . ج "الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا في القرون الثامن والتاسع والعاشر الميلادي"، تعريب وتعليق الحواشي وتقديم اسماعيل العربي - دار الحداثة بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، الطبعة الأولى 1984م.
- 4- مجلة الدعوة، العدد 1136، أبريل 1988 - الرياض.
- 5- Haïdar Bammate (1976) "Muslim Contribution to Civilization" American Trust Publications, Indianapolis, Indiana.

تحدد مصادر التشريع ومرونتها مما يساير التطور



أ.د / مصطفى ديب البغا
وكيل كلية الشريعة للشؤون العلمية
- جامعة دمشق -

نمهيّد:

إن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الإنسان عبثاً، ولم يتركه سدى، بل فضله على سائر خلقه بالتكليف، وتوجه إليه بالأمر والنهي، وطلب الفعل والترك، وجعل لكل فعل من أفعاله، أو تصرف من تصرفاته، حكماً شرعياً، يلزمه - وهو البالغ العاقل - أن يعمل بمقتضاه، ويقف عند حدوده ومنتهاه، ويجب عليه امتثاله، سواء أكان هذا الحكم تكليفاً - حسب اصطلاح الأصوليين - كالإيجاب: بمعنى أن الشارع طلب الفعل من المكلف مع المنع من تركه، والندب: بمعنى أن الفعل مطلوب مع عدم المنع من الترك، والتحريم: لأن الطلب هو الكف عن الفعل مع المنع من فعله، والكراهة: لأن الطلب هو الكف مع عدم المنع من الفعل، والإباحة: لأن الشارع خير المكلف بين الفعل والترك. أم وضيعاً - كما هو عند الكثيرين منهم - كجعل الشيء: سبباً في غيره، أو شرطاً له، أو مانعاً منه، ليجترّب على الفعل أثره، وتنبيهه غايته، ويحكم عليه بالصحة أو الفساد.

وهذه الأحكام الشرعية - تكليفية أم وضعية - هي عبارة عن خطابات الله تعالى القديمة النفسية، القائمة بذاته العلية، المتعلقة بأفعال المكلفين بالوجه الذي ذكر، والمرتبطة بها على النحو الذي بين.

ولما كانت هذه الأحكام الشرعية، وتلك الخطابات النفسية - بعض أنواع صفة الكلام القديمة، وكانت غائبة عن أنظارنا، بعيدة عن مداركنا، ولا يمكن لنا